ان يرى كما رأى ابو العلاء المعري في قصيدته المشهورة التي قالها عن لسان درج يخاطب سيفاً وهو كفيف البصر

سليم خوري
بقلم سكرتير مالي السودان

السياسة من لباب الآداب

ذكرنا في الجزء الاخير من العام الماضي انهُ وقعت لنا النسخة الاصلية من كتاب لباب الآداب الذي الفهُ اسامة ابن منقذ الكناني الملقب بمؤيد الدولة في اواخر القرن السادس للهجرة اي منذ نحو ٧٥٠ سنة ولم يكد المقتطف ينتشر حتى كتب الينا الاستاذ درنبرج المستشرق الشهير من باريس يقول ان الكلمة التي تعذرت علينا قراءتها في اول السطر الثاني من الصفحة الاخيرة هي كلمة "عالية" واسم الناسخ "شنايم" فترفع الى حضرته واجب الشكر وما هي اول مرة اخذنا الفتنا عن العجمي. هذا وقد رأينا ان نستأنف النقل من باب السياسة الذي نقلنا بعضهُ في ذلك الجزء من المقتطف وجعلنا سطور الصفحتين التاليتين كما هي في الكتاب ورسمنا تينك الصفحتين بالفوتوغراف لكي تظهر اشكال الحروف وطريقة الخط

"قال الحكماء الحازم من لم يشغلهُ البطر بالنعمة عن العمل للعاقبة والمهم بالحادثة عن الحيلة لدفعها. وقالوا الحزم الحذر عند الامن والعاقل من حذر الليل والنهار فان فيهما مكمن الآفات. وقالوا اياك ان يطمعك الاغترار بالتهاون بالعدو الضعيف فان العدو الضعيف المحارس من العدو احرى بالظفر من العدو القوي المغترّ بالعدو الضعيف. وقالت الحكماء العجز عجزان عجز عن طلب الامر وقد امكن والجد في طلبهِ وقد فات

"وقالت الحكماء من كانت فيهِ ثلاث خلال لم يستقم لهُ امر التواني في العمل والتضييع للفرص والتصديق لكل مخبر. وقد قيل اربعة اشياء لا يُستقلّ قليلها المرض والنار والدَّين والعداوة. وقالوا ان العاقل وان كان واثقاً بقوتهِ وعقلهِ فليس ينبغي ان يحملهُ ذلك على ان يجني على نفسهِ العداوة والبغضاء اتكالاً على ما عندهُ من الرأي والقوة كما ان العاقل اذا كان عندهُ الترياق لا ينبغي لهُ ان يشرب السم اتكالاً على ما عندهُ. وقالوا احذر معاداة الذليل فربما شرق العزيز بالدناية

"وقالت الحكماء لا تنم عن عدوك فانهُ غير نائم عنك ولا تتغافل عنهُ فانهُ غير متغافل عن عثراتك وكيف لا يكون كذلك

وهو يرى انك يكون موته وبطاك يكون فقره وبقوتك يكون
ضعفه ه وقد قال مؤلف الكتاب ه

لا تحقرن من الضعيف عداوة فالنار تخرق حرها وشرارها

واحذر مداجاة العدو وكيده ان العداوة ليس تخبو نارها

وقال العزيزي ه

لله در كل ما نظن بنا ير حران ليس عن التراث رما قلب

ايقظته ورقدت عنه ولم يم خفيا عليك وكيف نوم الحاقد

ان تكن الايام فيك وعلما يوما بكل لك باضواع الريب

وقالت الحكماء اياك والثقة بعدو لك اذا صالحك واظهر لك

غاية النصيحة فان صلح العدو لا يكن اليه ولا تغتر به

فان الماء الواسخن فاطيل امتحانه لم تسبغه ذلك من اطفا النار اذا صب

عليها وانما صاحب العدو المصالح كصاحب حية يحملها في حجره ه

وقالوا اذا احدث لك عدوك صداقة لعلة الجاءته الى ذلك

فعل اول

فبعد زوال تلك العلة ترجع العداوة الى ما كانت عليه كالماء الذى
يطال اسخانه فاذا رفع عن النار عاد باردا ٥ وقالوا ان
الاحقاد مخزونة حيث كانت وأشدها ما كان فى نفس الملوك فان
الملوك يدخرون للانتقام ويرون الطلب بالوتر مكرمة فلا ينبغى للعاقل
ان يغتر بسكون الحقد فانما مثله فى القلب كما لم يجد محركا مثل
الجمر المكون ما لم يجد حطبا ويثير الحقد يطلع الى العلل كما ينبغى
النار الحطب فاذا وجد علة استعار استعار النار فلا تطفئه ما
ولا كلام ولا لين ولا رفق ولا خضوع ولا تضرع ولا شىء دون النفس
وقد قيل احزم الملوك من لم يلتمس الامر بالقتال وهو يجد الى غيره
سببا لان النفقة فى القتال من النفس وسائر الاشياء انما النفقة
فيها من الاموال والقول ٥ وقالوا اضعف حيل الحرب اللقاء
وصرعة اللين والمكر اشد اسبابا للعدو وصرعة المكابرة والحازم
اذا نابه الامر العظيم المفضع الذى يخاف منه الخايحة المخوفة

وهو يرى بحياتك يكون موته وببقائك يكون فقره وبقوتك يكون ضعفه . وقد قال مؤلف الكتاب

لا تحتقرن من الضعيف عداوة فالنار تحرق جمرها وشرارها
واحذر مداجاة العدو وكيده ان العداوة ليس تخبو نارها

وقال العربي

لله درك ما تظن بثائر حرّان ليس من التراث براقد
ايقظته ورقدت عنه ولم ينم حنقاً عليك وكيف نوم الحاقد
ان تمكن الايام فيك وعضها يوماً يكلّك بالصواع الزائد

وقالت الحكماء اياك والثقة بعدوك اذا صالحك واظهر لك غاية النصيحة فان صلح العدو لا يمكن البتة ولا تغتر به فان الماء لو سخن فاطيل استخانهُ لم يمنعهُ ذلك من اطفاء النار اذا صُبَّ عليها وانما صاحب العدو المصالح كصاحب حية يحملها حيث كان . وقالوا اذا احدث لك عدوك صداقة لعلّة الجأتهُ الى ذلك

فبعد زوال تلك العلة ترجع العداوة الى ما كانت عليه كالماء الذي يطال استخانهُ فاذا رُفع عن النار عاد بارداً . وقالوا ان الاحقاد مخوفة حيث كانت واشدها ما كان في انفس الملوك فان الملوك يدينون بالانتقام ويرون الطلب بالوتر مكرمة فلا ينبغي للعاقل ان يغتر بسكون الحقد فانما مثلهُ في القلب ما لم يجد محركاً مثل الجمر المكتون ما لم يجد حطباً . ولا يزال الحقد يتطلّع الى العلل كما تبتغي النار الحطب فاذا وجد علة استعر استعار النار فلا يطفئهُ ماء ولا كلام ولا لين ولا رفق ولا خضوع ولا تضرّع ولا شيء دون الانفس وقد قيل احزم الملوك من لم يلتمس الامر بالقتال وهو يجد الى غير القتال سبيلاً لان النفقة في القتال من الانفس وسائر الاشياء انما النفقة فيها من الاموال والعقول . وقالوا اضعف حيل الحرب القتال وصريعة اللين والمكر اشد استئصالاً للعدو من صرعة المكابرة . والحازم اذا نابهُ الامر العظيم المقتضع الذي تخاف منهُ الجائحة المخوفة

على نفسه وقومه لم يخرج من شدة يصبر عليها لما يرجو من حميد عاقبتها ولم يجد لذلك مساغاً ولم يشجع بنفسه من الخضوع لمن هو دونه حتى يبلغ حاجته ومقصوده وهو حامد لغب امره لما كان من رأيه وحسن اصطباره . وقال الشاعر

اذا المرء والاه الهوان فأوّلٌ هواناً وان كانت قريباً اواصرهُ
فان انت لم تقدر على ان تهينهُ فدرهُ الى اليوم الذي انت قادرهُ
وقارب اذا ما لم يكن لك قدرة وصبّر اذا ايقنت انك قاهرهُ

كتب ارسطاطاليس الى الاسكندر انك قد اصبحت ملكاً على ذوي جنسك واوتيت فضيلة الرئاسة عليهم فما تشرف به رئاستك ويزيدها نُبلاً ان تستصلح العامة لتكون رأساً لخيار محمودين لا لشرار مذمومين . ورئاسة الاغتصاب وان كانت تُلزم خصال شتى فان اول ما فيها المذمة انها تحط قدر الرئاسة وذلك ان الناس في سلطان الغاصب كالعبيد لا كالاحرار ورئاسة الاحرار اشرف من رئاسة العبيد ومن تخيّر رئاسة العبيد على رئاسة الاحرار كمن تخيّر رعي البهائم على رعي الناس وهو يظن انهُ قد اصاب وغنم . فحال الغاصب في ما يركب من الغصب هذه الحال لانهُ يطلب نحل الملك وشرفهُ وليس شيء ابعد من شرف الملك من الاغتصاب لان الغاصب في شكل المرتى والملك في شكل الاب اللطيف

"ومما يضع قدر الرئاسة ما كان يصنع ملك فارس فانهُ كان يسمي اباهُ وكل احد من رعيته عبداً . والرئاسة على الاحرار والافاضل خير من التسلط على العبيد وان كثروا وهي عند الناس جميعاً اولى ولا سيما لذوي الفهم والاخطار . وانت حقيق ان تسلّ سخيمة العامة بما تذيقهم من رفق تدبيرك وتضعهُ عنهم من مكروه العنف والخصاصة فان العبيد اذا عرضوا على المشترين لا يسألون عن يسارهم وجاههم وانما يسألون عن اخلاقهم وهل فيهم فظاظة . فالاحرار اجدر ان يتعرّفوا ذلك وان يُعرَّفوا منهُ اذا كان ذلك في السلطان ولذلك ما يصيرون الى خلع والوثوب عليهِ . واذا ظهرت على فئة فضع من اوزار الحرب واوزار الغضب لانهم في تلك الحال كانوا عدمًا وفي هذه الحال صاروا خولاً فقد ينبغي ان يسلّم من الغضب رحمةً وعطفاً . وقد ينبغي للسلطان ان يعرف مقدار الغضب فلا يكون غضبهُ شديداً طويلاً ولا ضعيفاً قصيرًا فان ذلك من اخلاق السباع وهذا من اخلاق الصبيان . ومن كبر الهمة ان يكون الملك متعطفاً على الناس فانهُ بالعطف والرحمة ينبل ويسعد سيتدُ . وانا اعرفك على هذا المذهب ولكني لا آمن ان تتوانى فيهِ مما جرى عليك من قاس كثير من سوء المشورة فان كثيرًا من الناس يشيرون اذا استشيروا بغير ما يشاكل المشار عليهِ

بل بما يشاكلهم وليس بما ينتفع به في الامر الحادث ولكن بما يخصهم نفعهُ في انفسهم

"وانا احبُّ لك ان تقتدي برأي اسندوس حيث يقول ان فعل الخير في الجملة افضل من فعل الشر ومن يستطيع ان يغلب الشر بالخير دون الشر فهي اشرف الغلبتين لان الغلبة بالشر جلد والغلبة بالخير فضيلة . واعلم انهُ قد امكنك ان تودع الناس من حسن اثرك ما ينشر ذكرهُ في آفاق البلاد ويبقى على وجه الدهر فافترص ذلك في اوانهِ واعلم ان الذي يتعجب منهُ الناس الجزالة وكبر الهمة والذي يحبُّون عليهِ الشوامخ ولين الجانب فاجمع الامرين تستجمع محبة الناس لك وتعجبهم منك . ولا تمتنع ان تتكلم بما يطيّب قلوب العامة فان الناس يتقادون للكلام اكثر من انقيادهم بالبطش . ولا تحسب ان ذلك يضع من قدرك بل يزيدهُ نبلاً ان تنطق بالخير اذ انت على الشر قادر . واعلم ان التودُّد من الضعيف يُعدُّ ملقاً والتودُّد من القوي يعد تواضعاً وكبر همة فلا يمتنع ان تتودَّد الى العامة تحصل لك محبتهم وتنال الطاعة منهم . واعلم ان الايام تأتي على كل شيء فتخلق الافعال وتمحو الآثار وتميت الذكر الاَّ ما رسخ في قلوب الناس بجيد ثوارثها الاعقاب . فاجتهد ان تظفر بالذكر الذي لا يموت بان تودع قلوب الناس محبة يبقى بها ذكر مناقبك وشرف مساعيك . ولا ينبغي للمدبر ان يتخذ الرعية مالاً وقنية ولكن يتخذهم اهلاً واخواناً . ولا ترغب في الكرامة التي تنافذا من العامة كرهاً ولكن التي تستحقها بحسن الاثر وصواب التدبير"

"قيل بلغ بعض الملوك حسن سياسة ملك آخر فكتب اليهِ قد بلغت من حسن السياسة ما لم يبلغهُ ملك فافدني ما الذي بلغكهُ . فكتب اليهِ لم اعزل في امر ولا نهي ولا وعيد واستكفيت الكفاية واثبت على الثنا لا على الهوى واودعت القلوب هيبة لم يشبها مقت وودًّا لم يشبه كذب وعممت بالقبول ومنعت التفضل

"قيل لما اراد الاسكندر الخروج الى اقاصي الارض قال لارسطاطاليس اخرج معي قال قد كمل بدني وضعفت عن الحركة فلا تزعجني . قال فاوصني في عمالي خاصة . قال انظر من كان منهم لهُ عبيد فاحسن سياستهم فولِّه الجند ومن كان لهُ ضيعة فاحسن تدبيرها فولِّه الخراج

"عن عوانه قال قال زياد بن ابيهِ ما غلبني معاوية في شيء من امر السياسة الاَّ في شيء واحد وذلك انني استعملت رجلاً على دست ميسان فكسر الخراج ولحق بمعاوية فكتبت اليهِ اسألهُ ان يبعثهُ اليَّ فكتب اليَّ بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعدُ فانهُ ليس ينبغي لمثلي ومثلك ان نسوس الناس جميعاً بسياسة واحدة ان نشد جميعاً فخرجهم او نلين جميعاً فمرجهم ولكن تكون انت تلي الفظاظة والغلظة واكون انا الى

الرأفة والرحمة فاذا هرب هارب من باب وجد بابًا فدخل منهُ والسلام

"قال بعض الحكماء منازل الراي اربعة التقدم في الامر قبل حلولهِ فان قصَّر فيهِ فالجد عند وقوعهِ فان قصَّر عن ذلك فالسعي في التخلص منهُ فان قصَّر فيهِ فليس الاَّ بذهاب الزمان الذي يذهب بنفع صواب الراي

"روي ان بعض ملوك الفرس سأل حكيمًا من حكمائهم ما شيءٌ يعينُ بهِ السلطان قال الطاعة . قال فما سبب الطاعة قال التودُّد الى الخاصة والعدل على العامَّة . قال فما صلاح الملك قال الرفق بالرعية واخذ الحق منهم في غير مشقة وادائهُ اليهم عند اوانهِ وسد الفروج وامن السبل وانصاف المظلوم من الظالم وان لا يفرط القوي على الضعيف . قال فما صلاح الملك قال وزراؤهُ اصولهُ فان هم فسدوا فسد وان هم صلحوا صلح . قال فاية خصلة تكون في الملك انفع قال صدق النية" انتهى

ويلي ذلك ٢٤ صفحة كلها على هذا النسق من النصائح والحكم عن السنة الملوك والحكماء والفلاسفة . وفي الصفحة السادسة والتسعين من الكتاب كلام للمؤلف قال فيهِ ما يلي وقد صورنا تلك الصفحة بالفوتوغرافيا ونشرناها هنا ورتبنا السطور والكلمات كما هي في الاصل

قلت اذكر في قول

الحكيم انما سلطان الملك على الاجساد دون القلوب امرًا شهدتهُ بمصر في سنة سبع واربعين وخمس مائة وهو ان رسول ملك الحبشة وكتابهُ وصل الى الملك العادل ابي الحسن علي بن السلار رضي الله عنهُ فسألهُ ان يأمر البطرك بمصر ان يعزل بطرك الحبشة وتلك البلاد كلها مردودة الى نظر بطرك مصر فامر الملك العادل باحضار البطرك فحضر وانا عندهُ فرأيت شيخًا نحيفًا مصفرًّا فادناهُ حتى وقف عند باب المجلس فسلَّم ثم انحرف فجلس على دكة في الدار ونفذ اليهِ يقول لهُ ملك الحبشة قد شكا من البطرك الذي يتولى بلادهُ وسألني في التقدم اليك بعزلهِ فقال يا مولاي ما وليتهُ حتى اختبرتهُ ورأيتهُ يصلح لناموس الذي هو فيهِ وما ظهر لي من امرهِ ما يوجب عزلهُ ولا يسعني في ديني ان اعمل فيهِ بغير الواجب ولا يجوز لي ان اعزلهُ فاشاط الملك العادل رحمة الله من قولهِ وامر باعتقالهِ فاعتقل يومين ثم اخذ اليهِ وانا حاضر يقول لهُ لا بدَّ من

عزل هذا البطرك لاجل سوء ان ملك الحبشة في ذلك فقال يا مولاي ما عندي جواب غير

ورع قوى ورعيته طايعة ٥ قلت اذكرني قول
الحكيم انما السلطان الملك على الاجساد دون القلوب امرا شمدره مصر
في سنه سبع واربعين وخمس مايه وهو ان رسول ملك الحبشه و
وصل الى الملك العادل ابي الحسن علي بن السلار رضي الله عنه فسالة ان
يامر البطرك بمصر ان يعزل بطرك الحبشه وملك البلاد كلها مردوه
الى نظر بطرك مصر فامر الملك العادل باحضار البطرك فحضر وانا عنده
فراينا شيخا نحيفا مصفرا فادناه حتى وقف عند باب المجلس فسلم ثم
انحرف فجلس على دكة في الدار ونفذ اليه يقول له ملك الحبشه قد
شكا من البطرك الذي يتولى بلاده وسالني في التقدم لكي يعزله
فقال يا مولاي ما ولينه حتى اختبرته ورايته يصلح للناموس الذي هو فيه
وما ظهر لي من امره ما يوجب عزله ولا يسعني في ديني ان اعمل فيه بغير
الواجب ولا يجوز لي ان اعزله فلحظ الملك العادل رحمه الله من
وامر بلغفا له واعقل يومين ثم انفذ اليه وانا حاضر يقول له لابد من

ما قلتهُ لك وحكمك وقدرتك انما هي على الجسم الضعيف الذي بين يديك واما ديني فما لك عليهِ سبيل والله ما اعزلهُ ولو نالني كل مكروه . فامر الملك العادل رحمهُ الله باطلاقهِ واعتذر الى ملك الحبشة . انتهى نص الكتاب

فهذا امرٌ جرى منذ نحو ثمانمئة سنة في هذا القطر وفي هذه العاصمة رآهُ مؤلف هذا الكتاب بعينهِ وسمع ما قيل فيهِ باذنهِ وهو كأنهُ حدث امس وكتب عنهُ كما نكتب عنهُ اليوم . مرَّت ثمانمئة سنة والعادات لم تتغير ولغة الكتاب لم تختلف اختلافاً يذكر

ما هي اللغة[1]

الفكر حركة نفسية يحتاج في ظهورهِ الى معونة الجهاز المخصوص الذي يكون بهِ الكلام وعليهِ فالكلام هو حركة ذلك الجهاز المنبعثة عن مجرد الطبع او المدفوعة بالارادة للتعبير عن حركة من حركات النفس . ينتج من هذا ان الكلام يتنوع باختلاف الشارات التي تدل على الافكار وان تلك الشارات تنقسم الى قسمين طبيعيةٌ وصناعيةٌ

فالاولى هي التي تصدر عن الذات من حيث هي اي بمقتضى وجودها المادي وكل شارات هذا القسم عرضية مثل شارات اليد والرأس والعين وبقية الاعضاء ومثل الاصوات التي ليست الفاظاً والكلام اي النطق

والثانية خارجة عن الذات وهي تحدث من تأثير الانسان في الماديات الخارجة عنهُ وكل شارات هذا القسم جوهرية بمعنى ان لها دواماً طويلاً كان او قصيراً كالاعلام والنقش او الرسم والحفر والكتابة

ومما تقدم يتبين ان الكلام الطبيعي عام لكونهِ مفهوماً بذاتهِ من جميع الناس ومن الحيوان احياناً كما هو الحال بالنظر لشارات الاعضاء واصوات الغضب او الاستحسان من غير ان يكون هناك اتفاق سابق على مفهوم تلك الشارات

وعلى خلاف ذلك الكلام الصناعي او الاتفاقي لانهُ عبارة عن مجموع الالفاظ المخصوصة الموضوعة للمعاني المخصوصة وعن التراكيب او الصيغ الناتجة من تأليف هذه الالفاظ لترصل الى الذهن بواسطة الاذن او العين معاني مخصوصة متفق عليها

وقد يتأتى ان يكون الكلام الصناعي عاماً اي ان كل الناس يدركون المراد منهُ

(١) خطبة صاحب السعادة احمد فتحي باشا زغلول في نادي دار العلوم